Converted by Tiff Combine - (no stamps are applied by registered version)

جاء أبو سهل يحمل على عاتقه (أي ما بين المنكب والعنق) مخلاة جعل فيها كتبه. وعلى ما يبدو فإنّه لم يحمل معه شيئاً آخر، فالكتب هي زادُه ومتاعُه. أية كتب ؟ الأرجح أنّها ليست من تأليفه وأنّه انتسخها من كُتُبٍ أخرى، لأنّ المترجم لم يذكر له مصنّفات. وحسب ما يبدو فإنّه قرأها على شيوخه في المشرق، لأنّ الكُتُب، كما هو معروف، كانت تقرأ على أصحابها أو على رُواتها المجازين، أي الذين لهم الصّلاحية في تدريسها وتبليغها.

لماذا طلب الجمل من أبي سهل أن يجعل عليه مخلاته ؟ كل الاحتمالات ممكنة ما دام النّص لا يشير إلى **اللّهجة** التي استعملها الجمل لمخاطبة صاحبنا. لهجة الآمر الذي لا يُناقَش قوله ؟ لهجة النّاصح الودود ؟ لهجة المشفق الحنون ؟ هذه الاحتمالات لا تنفي احتمالاً آخر قد لا يكون مناسباً، ومع ذلك لا يجوز إهماله قبل تفحّصه. سنفترض أنّ لهجة الجَمَل لهجة المستهزئ، أو السّاخر. فكأنّه يُعَيِّر أبا سهلٍ بكونه انحطّ إلى مرتبة الدّواب التي تتكفّل بحمل أثقال الإنسان ! إنّ حمل الأثقال من شأن الدّواب ومع ذلك يتحاشاها أبو سهل ويأبى إلاّ أنْ يحمل كتبه على عاتقه. لنلاحظ أنّ الجَمَل ناداه باسمه : «يا أبا سهل»، وهو اسمٌ يعني اليُسر والرّفق واللّين، ثم إنّ السّهل نقيضُ الحَزْن، ويعني الأرض الممتدّة المستقيم سطحها. فكأنّ الجمل يقول لصاحبنا : لِمَ كل هذا الضنى وفي الدّواب راحة للإنسان ؟ لِمَ التّضييق على النّفس وبإزائك جملٌ وظيفته حمل أثقالك ؟ لِمَ تِهت عن الصّواب إلى حدّ التّشبه بالدّواب ؟

وبالفعل فإنّ أبا سهل يرزح تحت ثقل مخلاته ومن الأكيد أنّه يسير منحنياً مطأطئ الرّأس يحمل مخلاة، والمخلاة ما يُجعل فيه الخَلَى أي العُشب، المخلاة يُجعل فيها العَلَف وتُعلّق في عُنُق الدّابة. فالكُتُب في هذا السّياق مماثلة للعَلَف الذي لا يصلح إلاّ لآكلي العُشب، للبهائم التي لا شغلَ لها سوى حمل الأثقال والأكل والاجترار.[21]

21) تحيط بالكتُب شُبهة، ريبة تطالعنا منذ القدم. فالعلم النّافع هو العلم المحفوظ في الصّدور، أمّا العلم المُودَع في الكُتُب فهو علم ضائع. تؤكّد هذه الرّيبة أبيات من الشّعر يذكرها الجاحظ (I، 61 ـ 63) ومن بينها هذا البيت :

استودَعَ العلمَ قرطاساً فضيّعَه فبئسَ مستودَعُ العِلم القراطيسُ